المحاضرة الثانية:
البحوث الكيفية: المفهوم والأهمية

أولا- مفهوم البحوث الكيفية:

هي نوع من البحوث يصل إلى النتائج بطرق غير إحصائية، وتفترض وجود حقائق وظواهر يتم بناءها من خلال وجهات نظر الأفراد والجماعات المشاركة في البحث، وتحتوي طرق بحثية مختلفة، منها البحوث الاثنوغرافية، ودراسة الحالة، وبحوث الملاحظة بالمشاركة، وتصل هذه البحوث إلى نتائج بطرق غير إحصائية أو كمية، ومن هنا فالبحث الكيفي يستند على البعد الذاتي للخبرة الإنسانية التي هي دائمة التغيير وفقا لمعطيات الزمان والمكان، كما يهدف إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة وحصر معنى الأقوال التي تم جمعها أو السلوكيات التي تمت ملاحظتها من خلال الملاحظة بالمشاركة والمقابلة وسير الحياة و غيرها.[1]

وهي نوع من البحوث العلمية التي تفترض وجود حقائق وظواهر اجتماعية يتم بنائها من خلال وجهات نظر الأفراد، والجماعات المشاركة في البحث، حيث تهدف في الأساس إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة، وعليه ينصب الاهتمام هنا أكثر على حصر معنى الأقوال التي تم جمعها أو السلوكيات التي تمت ملاحظتها.[2]

ويجرى البحث الكيفي على موضوع (شخص، حدث، وثيقة) في سياق طبيعي، حيث يقوم الباحث بجمع البيانات، ثم يحللها بأسلوب استقرائي، مع التركيز على المعاني التي تحملها الكلمات، أو الأحداث، أو الصور، فيكون الهدف هو الفهم المعمق للظاهرة أو الحالة المدروسة، وليس الهدف الوصول إلى نتائج للتعميم على ظواهر مشابهة، ولذلك فقيمة البحث الكيفي ترتبط بكفاءة إعطاء معنى للبيانات التي تم جمعها، أي الذهاب أبعد مما تريد البيانات الخام قوله، كما أن منهجية النموذج الكيفي في البحث مفتوحة، فالتصورات المنهجية يتم التخلي عنها إذا لم تتناسب مع الموضوع ومصالح المعرفة.[3]

حيث يتحدث ويشارك في البحث الكيفي المبحوثون مع الباحثين في البحث عن الحقيقة، وهذا ما جعل منهج الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة الكيفية، وبحوث سيرة الحياة، وطريقة المحادثة الجماعية، والمنهج الوثائقي، تشهد عملية إحياء، وعليه فالبحث الكيفي هو الذي يرى في المجتمع وإنسانه وتاريخه كتابا مفتوحا يتعلم منه، لا يعلمه، ويستخلص المعرفة مباشرة من الإنسان وعالم حياته، ويفسر التغيرات النوعية في المجتمع المعقد، فهو مفهوم مركب لمداخل نظرية ومنهجية مختلفة جدا إلى الواقع الاجتماعي، حيث يقول "أنسليم ستراوس" يقصد بمصطلح البحث الكيفي أي نوع من البحوث لم يتم التوصل إليها بواسطة الإجراءات الإحصائية، أو بواسطة أي وسائل أخرى من الوسائل الكمية.[4]

ثانيا- أهمية البحوث الكيفية:

لقد ذهب فريق ثان من المفكرين في العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى معارضة إمكانية إخضاع الظاهرة الاجتماعية والإعلامية لما تخضع لها الظاهرة الطبيعية من منهج علمي،

بل ضرورة اعتماد مقاربة منهجية جديدة تتوافق مع الطبيعة الإنسانية للظاهرة الاجتماعية، وهي الميزة التي لا تتوفر عليها الظاهرة الطبيعية فها هو على سبيل المثال يتجه المفكر الألماني " ديلتي" (Dilthey) إلى الفصل بين علوم الطبيعة التي تعتمد في منهجها على التعليل وبين علوم الفكر أو الثقافة التي تعتمد في منهجها على الفهم التفسيري.[5]

وقد كان لهذا المفكر تأثيرا كبيرا على رائد سوسيولوجية الفهم الاجتماعي لماكس فيبر ومع هذا الأخير ظهرت الفكرة الابستمولوجية التي مفادها أن "دراسة الحوادث الطبيعية تندرج ضمن محاولة إقامة قوانين عامة فالعلاقات السببية تمثل موضوع الاهتمام والأساسي للعلم الطبيعي غير أن فهم الظاهرة أو مجموعة من الظواهر يعني دراستها من الداخل أي البحث عن العلاقات الكامنة التي تربط بينها بشكل أو بأخر عملية غير ممكنة التحقيق في العالم الطبيعي لأن دراسة الظواهر من الداخل يعني البحث عن كيفية نشأتها وهذا ضرب من المستحيل لأن الإنسان لا يخلق الظواهر الطبيعة.[6]

وانطلاقا من اتسام البحث الكيفي بالتأمل النقدي للباحث في فعله ومشاعره أو في حقل البحث بوصفه عنصرا أساسيا من المعرفة، فإن أهمية البحث الكيفي تكمن في إدراكه للبحث، بوصفه عملية فكرية دائمة حول الوجود الإنساني الذي لا يمكن فهمه ولا تأويله أو تحليله من خلال جمع البيانات وتقنيات البحث الكمية، بل من خلال فهم علاقة البحث بالحياة والباحث بالمبحوث، كعملية دينامية وحيوية، تسهم في فهم صحيح لحياة الإنسان وهذا ما يسميه (باشلار) بالتحليل النفسي للمعرفة، أي معرفة نفسية الباحث وذاتيته، ويعتبر البحث عملية استكشافية مفتوحة لا منغلقة، ومن خلال الملاحظة بالمشاركة والمقابلة الموجهة في سير الحياة والوصف الإثنوغرافي للحياة اليومية وللعمليات وفي المؤسسات نحصل غالبا على صورة واضحة وجلية، من منظور المبحوثين مثلا: المرضى المزمنين، المسنين، المقيمين بالمصحات العقلية، حيث نجد دراسات في هذا الجانب مهمة كالدراسة عن الفلاح البولندي لـ "وليم توماس" و"فلوران زنانيكي"، التي تناولا فيها الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعات العرقية المهاجرة من بولندا إلى أمريكا، فهي تتناول مسألة الهجرة ومشاكل المهاجرين والهجرة والعرقية.[7]

ولهذا مادامت المسألة تتعلق بفهم هذه الظواهر فإن أفضل الطرق لتحقيق ذلك هو الحدس والمعايشة الوجدانية لتجارب الآخرين، ففي نظر "فيبر" فإن المنهج عبارة عن وسيلة للحصول على المعرفة، وهو بذلك يخضع للقانون الذي يحكم جميع الوسائل أي الملائمة والفعالية، هذا ما ينطبق على المناهج الكيفية التي تهدف أساسا إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة، وعليه ينصب الاهتمام هنا أكثر على حصر معنى الأقوال التي تم جمعها أو السلوكيات التي تمت ملاحظتها.[8]

هوامش ومراجع:

1- سليم العايب: تنظير معرفي للمقاربة الكمية والكيفية في العلوم الاجتماعية، مجلة آفاق لعلم الاجتماع، جامعة البليدة2، المجلد 2، العدد 2، ماي 2013.
2- علي عبد الرزاق جلبي، المناهج الكمية والكيفية في علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية.
3- فضيل دليو، البحوث الكيفية. الجزائر: ألفا للوثائق، 2022.
4- عامر قنديلجي، إيمان السامرائي، البحث العلمي الكمي والنوعي، دار اليازوري، عمان، 2018.